الخطاب و الحجاج في أخلاقيات المناقشة عند يورغن هابرماس.

أ. خن جمال
المركز الجامعي غيليزان

ان ظاهرة العودة الى الأخلاق اصبحت تقليدا في الفكر الغربي المعاصر و ذلك راجع الى الهول الذي خلفته التقنية و انعكاساتهاعلى الانسان و على الطبيعة حيث كثرت النظريات في هذا الشان و تعددت، لعل من ابرزها نظرية المسؤولية لهانس جونس في كتابه مبدأ المسؤولية ، و كارل اتو أبل في مسالة التأسيس العقلي للأخلاقيات في عهد العلم ومقالة الفرنسي جاك ايلولو بحث من اجل اخلاقيات المجتمع التقني و دومنيك جانيكو في كتابه قوة المعقول و نظرية أخلاق التواصل التي يعمل هابرماس على تطويرها منذ كتاباته الأولى . ففلسفة الأخلاق عند هابرماس تطرح أسئلة بصفة الجماعة و أخرى بصفة الفرد، أما الأسئلة بصفة الجمع فتتمحور حول كيف نتعارف و نعرف انفسنا كأفراد ينتمون الى جماعة أخلاقية و على اي مبادئ تقوم حياتنا . اما من ناحية الفرد فتطرح اسئلة متشابهة من أنا ؟ و ماهي المبادئ التي أخضع لها ؟ومن يمتلك المشروعية لوضع المعايير الأخلاقية؟ لذا ستتمحور اشكاليتنا حول ماهي الشروط التي يقوم يقوم عليها الخطاب الأخلاقي لدى هابرماس؟ ومادور الحجاج في هذه الأخلاق؟كما سنحاول تمييز أخلاق المناقشة عند هابرماس عن الأخلاق الكانطية لمعرفة ما مدى تجاوز هابرماس لأحد أكبر أساتذته في مجال الأخلاق والسياسة؟

أولا: الخطاب الأخلاقي وشروط صحته :

يقترح هابرماس في نظرية اخلاقية المناقشة مباديء اجرائية توجه المناقشة الحقيقية بين الاشخاص , لذا صاغ في هذا المجال مبدأين :الأول يسميه مبدا المناقشة و يسمي المبدأ الثاني بمبدأ الكونية، اما مبدأ المناقشة فيقوم عل معايير ترضي كل الأطراف المعنية بالحوار باعتبارهم ذوات فاعلين و يمكنهم ادعاء الصلاحية ، اما المبدأ الكوني، فيقوم على ان كل حواريجب ان يستوفي الشرط الذي بموجبه يقبل كل الاشخاص النتائج و الأثار الجانبية الناجمة عن قبول الجميع بالعمل عن طيب خاطر من اجل مراعاة كونيته و حتى و لوتطلب ذلك التضحية بالمصالح الخاصة لكل واحد من المشاركين و هذان « **المبدأن يقترحان ازاحة التمركز عل الذات في المناقشة العملية . و ذلك قصد الوصول الى اجماع عقلاني بخصوص المصالح الكونية المشتركة** « **(1)** و هكذا فان أخلاقيات المناقشة لا يقدم فيها هابرماس المعايير التى يجب اتباعها في المجتمع و الحياة ، و لكن «**الاجراءات و الشروط المنظمة لمناقشة عقلانية تمكن المشاركين فيها من الوصول الى الاجماع** « **(2)** الحر النابع من رغبة و ارادة حقيقية لتغيير معطيات معينةأو قوانين ما ، ثمة اذن نظام ضمني يحاول هابرماس الكشف عنه و هو الأخلاق الكلية و هذا ما لم يقبله علماء الاجتماع اذ كيف يمكننا التفكير بنظام اخلاقي ينطبق على جميع البشر بشتى انماط حياتهم.

فأخلاقية المخاطبة او النقاش تعني حسب هابرماس «**شرعية معيارية يتم تحقيقها بواسطة اولا عقلانية خطابية تقتضي نموذجيا البحث عن الحجة الافضل ،و من ثم الانفتاح على كافة الحجج ذات الصلة ، و ثانيا الشمولية التي تتضمن نمزذجيا ، مشاركة و اعترافا متبادلا بين كافة المعنيين، باختصار وبعبارة موجزو ,ينبغي ان تسمع كافة الحجج و ان يصغي الى سائر المعنيين او باختصار و بعبارة سالبة .ان الاستبعاد غير المستحق ليضعف الشرعية المعيارية** «(3)،تهدف هذه المعايير الى تحقيق الاجماع النابع من الحوار النظيف الخالي من السيطرة و الهيمنة. والاجماع الذي يقصده هابرماس هو الذي يتحقق فقط عن طريق قوة الحجة الأفضل، و لا يكون نتيجة ضغوط خارجية أو داخلية ،واعية أو غير واعية،ظاهرة او خفية ومن ثم فان الحوار و المناقشة يتأسسان على مسلمة مفادها ان النقاش القائم على الحرية و على الاحترام المتبادل و على الحجج العقلية يقود بالضرورة الى نتائج يمكن ان يتوافق عليها الجميع .

ولقد حاول هابرماس رفقة زميل كارل أتوآبل وضع تصور لأخلاق المناقشة التى تتميز بالبرهنة كطريقة لتسوية المسائل الأخلاقية ، بحيث ان الفهم الأخلاقي و السياسي للكيفية التى نريد ان نعيش بها نحن كأفراد لجماعة معينة يجب ان تتناسب مع المعايير الأخلاقية و يجب أن ترتكز المناقشات على تبادل الحجج و الأدلة التي يجب ان تؤدي الى طرق تراض مستقيمة .

ان الاجماع عند هابرماس هو غاية في ذاته يدرك بعد المناقشة العقلانية و التي يشارك فيها كل المعنيون و هو يتاسس انطلاق من «**فحص صلاحية كل المعايير بما في ذلك الاوامر الاخلاقية او حتى مبادئ العدالة نفسها** « **(4)** ، فحسب هابرماس هناك قول ملوث و قول مطهر و النقاش و مايرتبط به من معايير وادعاءات الصلاحية والحجج و البراهين انما يسعى الى تطهير القول الملوث ، و التطهير يكون من تلك الدوافع الخفية او النوايا الخبيثة للمشاركين، فالنقاش هو التعامل مع اقوال ملوثة بغية تطهيرها للوصول الى اتفاق واجماع اللذي أصبح ذلك القول المطهر، فالعمليات المنتجة عند هابرماس لا تكمن في شكل التفاهم بل في مضمونه المحتمل. فتحصيل العالم المعاش يبرر طاقة العقل المتضمنة في الفاعلية التواصلية .

يعتقد هابرماس أن دعاوي الصلاحية مثل الوضوح و الجدية و الصدق دعاوي كلية، تتحقق في سائر المجتمعات على أنحاء متباينة ، لذا يميز هابرماس بين نوعين من السلوك ، السلوك الغائي وهو مايسميه هابرماس بالاستراتيجي و سلوك تواصلي ، و هذا الاخير يخضع للمبادئ القبلية و الكلية لانه يتشكل عن طريق الاجماع عبر الحجج المتبادلة وفق الاعتماد على وسيلة لبلوغ اغراض شخصية ما .

و ثمة غرابة في مفهوم دعاوي الصلاحية لدى هابرماس تكمن في اتفاقه حول هذا المفهوم و ما يتعلق به من ملابسات مع ليوتار المعروف بعدائه الشديد لهابرماس، حيث يشترك هابرماس و ليوتار في منح اضفاء الشرعية على دعاوي الصلاحية استنادا الى مطلق و بالخصوص بعد سقوط الميتافيزيقا، غير ان هابرماس لا يرى في ذلك «**دليلا عل نسبية**

كل صور حجاج و على خاصتها الحكمية بل ينتج من ذلك حتمية التفاهم حول صلاحية ما تقرره

من قضايا عن طريق تحصيل الاجماع « (5) فهابرماس معروف بحساسيته ضد الاجماع الذي يقرره الواقع العيني و هي حساسية لا تقل عن حساسية ليوتارفقد «**يتاسس الاجماع في أرض الواقع داخل مجتمع يرفع ظاهريا شعار الديمقراطية بينما يسعى الى تدمير ذاته شغفا بالديكتاتورية** « (6).

فالحوار الذي يؤدي الى التفاهم يهدف الى تكوين اجماع مستمر و مصادق عليه عقلانيا ، بدلا من اقامة تحالف توافقي يتبدل حسب الظروف الحاجات او توافق نفعي كما يسميه هابرماس لذا يحدد هابرماس التوافق على قاعدة الحجة الأقوى بصفتها الصفة الصورية للعقلانية و ذلك حتى يتمكن من توسيع المجادلة التى تغدي النقاش لما للنقاش من حيوية و دور، حيث يعتبر قاعدة صلبة في مقاربة هابرماس التواصلية.

ان النقاش لا تتضح نتائجه و أهدافه الا اذا كانت له فاعلية ،و لن تكون له فاعلية الا اذا كان له نتائج على مستوى القواعد القانونية لتأسيس القانون، حيث يوضح علاقة النقاش بالقانون أحد الباحثين في فكر هابرماس كالأتي «**ان المأسسة القانونية للشروط المسبقة للتمرين على الاستقلال الذاتي السياسي ، بلجوئها للنقاش و الذي بفضله يصبح من الممكن ان نسد باثر رجعي الشكل القانوني الذاتي الخاص و الذي كان مطروحا بطريقة مجردة** « (7)

ان الأخلاق الكانطية ظلت الهاجس الأول لدى هابرماس اذ اعتبرها ارث لا يمكن التفريط فيه لذاظلت بمثابة الخيط الناظم لنظريته الأخلاقية ككل، حيث عكف بعد تحيينها و تجديدهاعلى تكييفها مع متطلبات مجتمعاتنا اليوم ، لذا نجد هابرماس يلزم الذوات المتحاورة بالقواعد الصورية من اجل الوصول الى اجماع عقلاني، و هذا ما استمده هابرماس من النظريات الحجاجية لتولفين و حيث قارن هابرماس بين هذه النظرية في المحاججة و بين الأمر المطلق لكانط و توصل الى هذه العلاقة حيث « **ياخذ اجراء و المحاججة الأخلاقية في اخلاقيات المناقشة المكان الذي تحتله مقولة الامر المطلق في الاخلاق الكانطية** « (8) و هذه النظرية الحجاجية استعملها هابرماس من أجل تأسيس مبدأ الاستدلال في الأخلاق تماما مثلما هو حاصل في المنطق و العلوم التجريبية .

ان قيام الأخلاق الهابرماسية على المعايير الصالحة و القابلة للتعميم هو الذي يجعلها امتداد للاخلاق الكانطية حيث تكون المعايير الأخلاقية مبنية على الاعتراف المتبادل و المحفز عقلانيا دون تدخل العوامل الثقافية التاريخية و العرقية...الخ انها أخلاق سياقها الوحيد هو العالم المعيش فباعتبار ان هابرماس يجمع في أخلاق المناقشة بين وجهة نظر الأخلاقية و مبدأ المناقشة بوصفه مبدأ مكمل لمبدأ الكونية فان نظريته تنطلق من «**سياق العالم المعيش الذي يشكل اطارا لتفاعلات متوسطة باللغة** « (9).

فلا يوجد عندهابرماس مبرر واحد كما لا يدافع عن مضمون معياري واحد بل تتطلب أخلاق المناقشة باعتبارها عملية اجرائية ،تأسس لاجراءات سليمة لبلوغ معايير خالية من الهيمنة و السيطرة ،حيث تتمثل الاجراءات السليمة و الصحيحة في الاحتكام الى الصلاحية العقلانية للاحكام الأخلاقية.

ثانيا: الحيادية و أخلاقيات النقاش:

مايمكن أن نلاحظه بخصوص شروط صحة الخطاب الأخلاقي هو الحيادية التي تعني الابتعاد عن

المصالح الشخصية ، حيث يكون دافعها المصالح العامة في الحوار فهي تؤكد على المشاركة، بمعنى تخص الأطراف المتحاورة و لا تعني وجود اشخاص أخرين غير معنيين بالحوار، فهي تعني القرار للحجة الأفضل ، فالحيادية اذن عند هابرماس تكون داخل الجماعة المشاركة من اجل أن» **يتحمل الجميع مسؤوليته في المعايير المتفق عليها** « **(10)**

ان المعيار الاخلاقي لا يكون الا اذا كان يحقق بالبرهان المصلحة القابلة للتعميم هذا المبدأ الذي استقاه هابرماس من كانط ، الا أن ثمة اختلاف في مفهوم المبدأين حيث يقيمه كانط على اجراء عقلي فردي فيما يقيمه هابرماس كاجراء اجتماعي و هو يميل في تصوره الى الفيلسوف الأمريكي ميد ،الذي يطلق على مبدأ التعميم اسم «التبني المثالي للأدوار» حيث يشبه التعميم باللعبة الجماعية ، اين يلعب الفاعلون الأخلاقيون معا، مع تصور جميع اللاعبون أنهم مكان الآخرين و هذا ما يطلق عليه ميد موفق «الآخر المعمم». صحيح أن الفاعل لا يتحرك الا وفق ما تمليه عليه مصالحه الا أن هذه المصالح قابلة للتعديل حيث تتعدل وفق ادراكه لمصالح الآخرين لتعطينا في الأخير ذات أكبر تترابط و تتلاقى فيها مصالح الجميع و هذه الذات هي المجتمع. يقول هابرماس في كتابه الحقيقة و التبرير» **يجب ان يكون كل منا قادرا على ان يضع نفسه في موقف كل اللذين قد يتاثرون بأداء فعل اشكالي أو تبني معيار مشكوك فيه** « **(11)** و من ثم فان الخطاب الخلقي هو الملجأ الأول للأفراد المتنازعين داخل العالم المعيش حيث تكون المعايير الأخلاقية هي الفاصل الوحيد لحل هذه النزاعات و المعيار الذي يتحدث عنه هابرماس ليس هو القيمة لأن القيمة نسبية تختلف من مجتمع لأخر و ومن زمان لأخر و هي مشرورطة ترتبط بالعقول و المجتمعات و الأديان بينما المعايير الصحيحة لا قيد و لا شرط فيها. ان المعيار الأخلاقي الصحيح يصمد في نقاشات مختلفة و مجتمعات متعددة اما القيم فلا تصمد الا في مجتمع محدد و ثقافة بذاتها .

ان الاخلاق الكلاسيكية التي كانت قائمة على العادات و التقاليد عجزت عن مواجهة العقل الأداتي ،هذا العقل الذي تسبب في العديد من الأمراض الاجتماعية كالتشيؤ و الاغتراب لذا وجهت سهام النقد للأخلاق الكلاسيكية أكثر من غيرها الى جانب العلم و التقنية و هذه الانتقادات طرحت بديلا لهذه الأخلاق يتمثل في أخلاق المناقشة ، و المحاججة عكس الأخلاق الكلاسيكية القائمة على الأوامر و النواهي و الايمان بالمعتقدات ثم التخلي عنها لصالح اخرى. فأخلاق المناقشة تقوم على الاستدلال المنطقي لاستخراج المعايير التى تضمن التواصل الاجتماعي و تحقيق الكونية على أساس تدوالي ، لتصبح تتصل بالانسان مباشرة بل هو الذي يشارك في وضعها مع جماعة اخرى،فهي تخص الكل و الجميع دون استثناء و لا تقصي أي مضمون فهي أخلاق تحارب الميتافيزيقا مادام انها تقوم على الحجة و البرهان . و لا مجال للادعاء الحقيقة دون الاعتماد على الآخرين انها أخلاق لا تؤمن بالحقيقة الواحدة ، بل بمجموع الحقائق تلك الحقائق العقلانية الى تشكلت من خلال أراء ومواقف مختبرة مع الآخرين ،فزمن الحقائق الكاملة قد ولى. فلا الذات و لا الجماعة قادرة على ادراك و بلوغ الحقيقة لأن الحقيقة هي ما نتفق عليه عن طريق النقاش، لذا راح هابرماس يؤسس أخلاقيات التواصل على « **مبادئ عقلية تستمد بعض عناصرها من التداوليات العامة لان هذه لتداوليات هي التي تسمح بالتفكير في الأساس الذي يجعل من التلفظات او افعال الكلام حقيقية و دقيقة** « **(12)**

ثالثا: وظيفة الخطاب الأخلاقي و أولوية الخلقي على الأخلاقي:

_ لقد طبق هابرماس نظريته في اخلاق المناقشة التى تقوم على المبدأ الكوني للقواعد على مفاهيم عديد ة كالتسامح حيث يؤكد في هذا المجال على أن قواعد السلوك التسامحي يجب ان تكون مقبولة عقلانيا لجميع الأطراف ، كما حاول من خلالها حل مشكلة التعدد العقيدي مؤكداعلى « **ان التعددية الثقافية التي لا تسيئ فهم دورها لا تنشئ طريقا باتجاه واحد للتاكيد الذاتي الثقافي للمجموعات مع هويات خاصة بها. ان التعايش السلمي لمختلف أشكال الحياة وبصورة متساوية يتطلب كذلك اندماج المواطنين في ايطار ثقافة سياسية مشتركة «(13)**

من أهم ما يمكن للقارئ ملاحظته على الفلسفة الأخلاقية لدى هابرماس هو محافظتها على المقاصد الكبرى للاخلاق الكانطية مع بعض التعديلات البسيطة في تأسيس المعايير الأخلاقية على مبدأ البيذاتية القائم على الحوارو المناقشة وهذا ماتؤديه العقلانية التواصلية من حيث أنها « **تنظم عملية التفاعل بين الأفراد و تصوغ فهم الجماعة لذاتها ،و طريقة فهمها للمعنى و يظهر هذا النوع في المجال الاخلاقي الذي ينظم الشرائع و المعايير الجاري العمل بها (14)** فهناك ارتباط وثيق بين العقل التواصلي و الأخلاق عند هابرماس وهذا في ايطار مايسمى بالعقل الكوني ، فالعقلانية التواصلية هي عقلانية كونية، و الأخلاق ترتكز في شروطها على التعميم و الكليانية و الكونية و من ثم « **فالعقلانية التواصلية هي حافز العقل العملي ،تقدم معيارا يتيح الحكم على شفافية السبل الاجتماعية ،و هي تتيح كذلك تصور لبناء «الحق « و يفترض سلفا تعميمها كليا للمصالح بوصفه جملة الشروط الضرورية لاتفاق الحريات ، ان الكلي في الحق كما في الأخلاق لا يبدو على انه معطى بل انه مطلب يتحقق ضمن الاتصال** « **(15)** .ومادام ان علاقة اللأخلاق بالعقلانية التواصلية علاقة لا نقاش فيها فان اللغة في نظر هابرماس هي مفتاح الأخلاق حيث انها براغماتية و كلية , و من ثم فهي طريق للعقل العملي ، و في هذا تقاطع بين هابرماس و كانط الأول من خلال فكرته في التعميم الكلي و الثاني من خلال فكرة الأوامر القطعية ، فالأمر القطعي « **في ما بعد الحداثة يبدو مرتبطا بالاتصال الذي يقدم فهما جديدا للعقل العملي** « **(16)** فالتواصل لا يمكن ان يكون الا باتيقا المناقشة التي تقوم بدورها على عدم دعوى امتلاك الحقيقة فحسب اتيقا **المناقشة** « **لا يمكن ادعاء صلاحية معيارما الا اذا اتفق كل الاشخاص المعنين باعتبارهم مشاركين في نقاش عملي حول صلاحية معياريا ما» (17)** فالاتيقا حسب هابرماس تهتم بالايطار المرجعي الذي تجري فيه المناقشات العملية ذات الطابع المعياري كما تقوم على معرفة الاجراءات التى تم اتباعها في تبرير صلاحية معيارما فهي معايير تعمل و توضع لتنظيم العملية التواصلية في المجتمع ذلك التواصل الذي يتم بين الأفراد في ايطار اللغة و النقد .

يشيرهابرماس في العديد من سجالاته الى مسألة اتيقا المناقشة و علاقتها بالتواصل فهي مجال مهم لفهم الانسان و العالم المعاصر حيث تحدد الاتيقا وجود الانسان و من ثم فالانسان عند هابرماس هو كائن اتيقي تواصلي و منه فان مفهوم التواصل عند هابرماس يلامس حقولا عدة من بينها اتيقا المناقشة. و المكون و الرابط الأساسي بينهما هو اللغة ،و اللغة ليست هي الرابط بين التواصل واتيقا المناقشة فحسب بل الرابط بين العقول جميعا .فاللغة تمثل أرقى انواع التخاطب و التواصل، و لقد حدد رومان جاكبسون ستة و ظائف للغة تلخص مستويات التواصل من جهة و مستويات التخاطب

من جهة اخرى حددها الأستاذ عمر مهيبل في كتابه المترجم في مقدمته **كالآتي « الوظيفة التعبيرية ، الوظيفية المرجعية ، الوظيفة التاثيرية و الوظيفة الشعرية و الوظيفة ما بعد اللغوية او الوظيفة الواصفة و الوظيفة التحفيزية «(18)**و هناك مستوى دلالي آخر هو مستوى التأويل الذي يساعدنا على الاستفادة من هذه الوظائف الستة كما يمكننا من تجاوز الوظيفة المباشرة للغة و بلوغ الحقيقية الكامنة في الحقائق المتعددة كما يرى بول ريكور.

يرى هابرماس أن ادراك التوافق بين المشاركين في مناقشة ما هو ادراك القاسم المشترك لهؤلاء ، و ذلك بقيام كل واحد من المشاركين بتبني رواية الآخر، و الغاية من هذا هو دفع الأنا للخروج من مركزيته و ذاتيته و انانيته بغية تكسير الشمولية و الكلية في فهم العالم و من ثم اكتشاف كل مشارك النظرة التى تخدم مصلحة الجميع للوصول الى ضبط الحلول اللازمة للاشكاليات المطروحة .

فالأخلاق عند هابرماس اذن شأنه في ذلك شأن زميله كارل اتوابل تعتبر مكون أساسي للعقلنة و التواصل ،و رغم ما تشكله الأخلاق الكانطية من أساس و مرجعية لهذه الأخلاق الا انها تنتقد ها بشدة كونها لا تحمل سوى مجموعة من الواجبات الصورية اضافة الى طابعها الترنسندنتالي ، عكس الاخلاق التواصلية التي هي أخلاق تبنى على الحوار و البرهان و من ثم فهي واقعية تقوم فيها الحقيقة على الحجاج و البرهان العقلي وسيلتها في ذلك اللغة و التداول و هذه الأخيرة قائمة على شروط معيارية تتصف بالصدق و المصداقية و الصلاحية و المعقولية، فاللغة حاملة للعقلانية.

رابعا:وظيفة الخطاب الاخلاقي .

ثمة سيميائية هامة سيجد فيها هابرماس أفضل حجة لتدعيم نظريته في ايتيقا النقاش اللغوي و هي سيميائية بيرس التي تربط بين الحقيقة و الاقناع و التواصل ،حيث يعطي هذا الربط فاعلية للغة في الخطاب ،, اضافة الى الدور الذي يلعبه العالم المعيش و مايحمله من معتقدات و قناعات سابقة و لغة متداولة ،حيث تحمل اللغة هذه القناعات و المعتقدات اينما حلت يقول هابرماس بخصوص دور المعتقدات في أخلاقيات النقاش « **ان المعتقدات تلعب دورا مغايرا في الوقت الذي تقوم بارساء حقائقها وفق طرق متباينة شعارها في ذلك التمسك بالنشاط و اغفال المقالات و الأقوال بأنواعها .و هذا مايجعل الفاعلين في عالم معيش معطى خاضعين لقناعات مسبقة يتاثرون بها في حلهم و ترحالهم «(19)**ومن بين هذه المعتقدات التي يمتلكها الأفراد مسبقا نجد اللغة حيث يفرق هابرماس بين منطوقات الأخلاقية والمنطوقات الوصفية على المستوى اللساني ، فالأولى تبين لنا ما يجب علينا فعله أو ما ينبغي علينا فعله أما الثانية فنرى بها الاشياء كما تبدو في علاقتها المتداخلة و المتشابكة و من ثم تكون اتيقا المناقشة لها وظيفة محددة اذ تقوم بشرح المضمون المعرفي لمنطوقاتنا الأخلاقية .

و هذا المنعرج الهابرمسي للغة كان وليد تلك الضجة اللغوية و المنطقية التى احدثها كتاب اوستين» كيف تصنع الاشياء بالكلام» و الذي يمكن ان نضعه في ايطار نقدي تداولي اذ اكتشف او ستين عجز التصورات المنطقية للدلالات الفلسفية و هذا ماحاول هابرماس ان يوسعه من خلال ترسيخ قاعدة للتفاهم اذ يحاول « **التركيز على المنعرج اللغوي من جهة أخلاقيات الحوار و هو يحرص على التوظيف التداولي الذي يسمح بمساهمة كونية تخرجنا من دائرة الافق الضيق للذات الى المشاركة و التبادل**

الحقيقي للرأي «(20)

ان النقاش لدى هابرماس له بعدين اساسين يتمثل البعد الاول في ابراز صحة الأراء أما البعد الثاني فيكون بدافع التعلم من الجماعة و في هذا تحقيق لقاعدة احترام الغير و اعطاءه فرصته في الكلام و منه احترام قواعد النقاش عموما ، و من ثم تكمن عملية تحرير اللغة من سجن البيان لأن الحقيقةعند هابرماس هي اللغة التي بدونها نبقى عاجزين عن التعلم.

يتضح لنا ان هابرماس يراهن على الخطاب الاخلاقي القائم على النقاش في ترسيخ قيم التواصل ، لذا عمل على تطوير البعد التداولي لهذا الخطاب من خلال تركيزه على المنعرج اللساني و ذلك من اجل ايجاد تطابق بين الفكر المجرد و الواقع حيث أن هذا التطابق في حد ذاته هو أحد الوظائف الأساسية للخطاب الأخلاقي ، فوظيفته تكمن في « **توضيح العلاقة الداخلية بين الفهم الممكن لافعال اللغة وبين مايفترض ان نعرفه عن شروط الامكان القادرةعلى توضيح مزاعم الصلاحية لدى افعال اللغة» (21)** و هذا ما اعتبره الكثير من النقاد على انه نوع من ترانسندنتالية كانطية تعيد هابرماس الى العقل المحض ,بدل من تداولية اللغة و هذا الوقوع في المحضور الذي وضعه هابرماس بنفسه هو الذي جعل هابرماس يحاول اعادة الكرة اي محاولة تحديد و ظائف الخطاب الأخلاقي و ذلك في المجال السياسي للابتعاد عن هذا التعالي الذي اتهم به .في كثير من الاراء و المواقف .حيث استعمل هابرماس نظرية أخلاقيات النقاش في دفاعه عن طرحه في الدولة العالمية، فهو يرى بان الاتيقا من شأنها اذا تقلص الشعور بالانتماء الى القومية من خلال التواصل و النقاش فهي تمنح المتحاورين الحافز الذي يجعلهم يمارسون حقوقهم كونهم كائنات بشرية وليس ككائنات قومية ،لأن الاتيقا القائمة على الحوار تؤمن بالتعدد و التنوع و لا تؤمن بالهوية الثقافية الواحدة و هذا مايجب حسب هابرماس ان يتكفل به « **اعضاء المجتمع السياسي المنظم حول تفكير منطقي وطني دستوري وقع اعادة فهمه في ايطار ذوات حقوقية تم الاعتماد عليها قبل كل ديمقراطية عالمية لحقوق الانسان»(22).**

لا شك ان ثمتا دواعي لدى هابرماس في عودته الى الكانطية في جانبها الأخلاقي و السياسي ، بالنظر الى مدى اسهام هذا المبحث الأخلاقي في تعزيز البراديغم التواصلي الذي شكل الاطار العام لفلسفة هابرماس . و بالنظر الى قرب هابرماس من كارل اتوابل في هذا المجال فلقد قام هذا الأخير بتأليف كتاب تحت «عنوان الاخلاق في زمن العلم «. حيث دعى فيه الى ضرورة تأسيس معايير أخلاقية كونية بناءا على أخلاقيات المناقشة ترفض التجربة و تؤمن بالعقل و من ثم ضرورة مشاركة الافراد في الحوار و منه مشاركتهم في العملية التواصلية وهذا الطرح كما هو معلوم تبناه هابرماس و عمل على تعميقه انطلاقا من منهجه النقدي مكيفا اياه حسب الوضعية المعاصرة التي تتميز بسيطرة العلم على الحياة. و يبدو ان هذا هو الدافع الحقيقي الذي كان وراء التفكير في العودة الى الاخلاق الكانطية و هي مايسميه كارل اتوابل بالأزمة الايكولوجية .

فهابرماس وزميله كارل اتوابل لايسيعان الى وضع المعايير الأخلاقية كما هو الشأن عند كانط ولكن الأخلاق عندهما مبحث اجرائي يسعى الى و ضع الشروط الضرورية لتنظيم الحوار،والتي يجب على المناقش الالتزام بها للوصول الى حلول عقلانية لتتحول في ما بعد الى معايير أخلاقية كونية تحفظ حقوق

و مصالح كل الأطراف المشاركة «**فأخلاقية المناقشة هي اخلاق اجرائية خالية من اي مضمون معياري** « **(23)** و منه يمكن القول أن نظرية أخلاق المناقشة عند هابرماس هي عبارة عن معايير أخلاقية تذاوتية لا تنظرالى الاتفاق النهائي فحسب بل تنظر كذلك الى المراحل التى تم عبرها االوصول الى هذا الاتفاق .و هذه الصورة تجعل الأخلاق الهابرماسية اخلاق غير جاهزة و غير محددة كما انها غير مطلقة و غير ثابتة بل تكون نتاج المناقشة فهي تابعة للكفاءات اللتي تستعملها و تتناقش حولها مما يجعلها قابلة للتغيير و التطوير لذا يعتبر النقاش و الحوار هو سر قوة أخلاق المناقشة .

ان تأسيس أخلاق المناقشة على أساس الحوار الذي يدور بين الأفراد و يمكن قراءته من زاوية أن هابرماس يسعى لجعل الأخلاق أكثر واقعية و أكثر مطابقة لما يتداوله الناس باعتبار ان التطابق بين النظري والعملي هو أحد أهداف مشروع هابرماس الفلسفي كما يمكن فهمه على انه تمهيد لأخلاق دنيوية و علمانية ترفض اعتمادالمصادر الميتافيزيقية و اللاهوتية فهذه الأخلاق تعتبر لدى هابرماس بمثابة الحل لمختلف أزمات المجتمع الحديث المتميز بالتعقيد والتعدد الثقافي و العرفي و السياسي و الذي تعذر على مختلف البرامج و النظريات الأخرى الوصول اليه .

مماسبق يتبين لنا أن هابرماس يحدوه أملا كبيرا في جعل الأخلاق الكانطية حية و ذلك في ايطار مشروعه الحداثوي الذي يتمسك بالفكر الانواري حيث قام هابرماس مع بداية التسعينات بمراجعة الامر المطلق لكانط و لكن في ايطار البيذاتية لجعل هذه الأخلاق أكثر راهنية و واقعية كما سبق الاشارة اليه حيث يقول هابرماس في مقدمة كتابه أخلاقيات المناقشة « **لقد شرعنا في السنين الاخيرة انا و زميلي كارل اتوابل في محاولة اعادة صياغة مانسميه مسالة تاسيس المعايير، اي الاخلاق الكانطية و ذلك بالاعتماد على وسائل مستمدة من نظرية التواصل** « **(24)** يعتبرهابرماس مبدأ الكونية كقاعدة حجاجية بديلا للأمر المطلق لكانط بحيث عوض ان أفرض قاعد تي على الباقي أوعلى الأخرين و التي اريدها ان تصبح كونية « **يجب ان اخضع قاعدتي لكي يفحصوها بالمناقشة ويمنحوني ادعاءات صلاحيتها الكونية** « **(25)**ومن ثم يبدو الآن الفرق واضحا بين الأخلاق الكانطية و الاخلاق الهابرمسية ،و بالخصوص الأخلاق الكانطية المتعلقة بالأمر المطلق حيث انها عبارة عن أوامر موجهة الى المخاطب بينما عند هابرماس غير موجهة لطرف معين بل هي عامة فلا و جود لصيبغة الأمر لدى أخلاق هابرماس و مبدأه الكوني ، و هذا المبدأ كما أوضحناه سابقا نابع من تعقد الحياة و تشابكها اجتماعيا لذا كان أكثر تجريدا و كونية، يقول هابرماس عن هذا التجريد في كتابه الحقيقة و التبرير «**فتعددية اشكال الحياة و المشاريع تلزمنا في نفس الوقت ان نتفق حول معايير اكثر تجريدا و اكثر كونية** «**(26)** و يمكن اعتبار هذا الراي موجه الى نقاذه الذين يرون ان اخلاق هابرماس اخلاق ترنسندنتالية كانطية مجردة و بعيدة عن الواقع. بل و على غير العادة لن ينصت هابرماس هذه المرة لمعارضيه اذ سيصبح أكثر قربا من كانط.

خاتمة :

و نود ان نشير أخيرا لبعض الانتقادات التي وجهت لنظرية أخلاق المناقشة لدى هابرماس بالخصوص في جانبها المتعلق بالاجماع الذي يستهدفه المبدأ الأخلاقي، و الذي يتطلب مواقفة كل

المعنيين مع التبني المثالي للأدوار و هذا ما اعتبره البعض بأنه عملية شاقة و مرهقة جدا كما يجعل من المعايير التي تمرعبرها هذه الأخلاق قاسية جدا اضافة الا ان هذه النظرية تتحاشى النزاعات و الصراعات التى تحدث بين الأفراد و تتحدث فقط على الاتفاق القائم على الحجة و البرهان و هذا ما لا نراه في الواقع .

ان صعوبة تطبيق المبدأ الاخلاقي داخل المجتمعات الحديثة المتميزة بالتعدد و التنوع و التعقيد جعل هابرماس يمر الى ميدان اخر وهو الميدان السياسي حيث أن هذا التعقيد الذي تتميز به المجتمعات الحديثة جعل المعايير الأخلاقية غير كافية لوحدها لاصلاح المؤسسات الاجتماعية و القانونية و السياسة ومن ثم سيدخل هابرماس منعطفا جديدا هو المنعطف السياسي و بالضبط مع كتاب الحقائق والمعايير الذي يعتبر تتمة لبرنامجه الأخلاقي ،فالسياسة و القانون لا يمكنهما العمل في غياب الخلقية. فلاسياسة و لا قانون دون نظرية أخلاقية.

الاحالات والهوامش:

(1) - سمير اليوسف ,بين هابرماس و كارل اتوابل ,امكانية تبرير المبادئ ملزمة كوني مجلة نزوى،العدد41،ص05.

(2)- محمد عبد السلام الاشهب ,مناظرة هابرماس و روالز، سؤال العدالة في الفلسفة السياسية ،كلية الأداب والعلوم الانسانية،سلسلة ندوات ومناظرات رقم 179 ص135.

(3)- المرجع نفسه، ص 136.

(4)- المرجع نفسه،ص145.

(5)- مانفريد فرانك،حدود الاجماع والتواصل بين هابرماس ليوتارت ، عز العرب حكيم نبالي، افريقيا الشرق ، ط1 ،2003 ،بيروت ، ص 77 .

(6)- المرجع نفسه .ص 86 .

(7)- دومينيك روسو ،التفكير بالحق مع هابرماس ، مجلة القانون العام و علم السياسة ، العدد 06،ص 1452 .

(8)- J. Habermas. - De l'éthique de la discussion, tr. Mark Hunadi.- ed flamarion ,1992.p 17.

(9)- ibid, p139.

(10)- J. Habermas.- Vérité et justification tr. Rainer Rochlitz et Christian Bouchindhomme.- Gallimard, 2001 ,p231.

(11)- جيمس جوردن فنيلسون ، يورغن هابرماس ، مقدمة قصيرة جدا ،ت احمد الروحي ،دار هنداوي ، ط1 ، 2015 القاهرة ،ص 106 .

(12) – محمد نوردين افايا، الحداثة و التواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة ،افريقيا الشرق،ط2،المغرب،1998، ص 207.

(13)- شيرزاد النجار النجار ، التسامح و للا تسامح لفلسفة هابرماس ، مجلة التسامح ، العدد 32 ،السنة 09 ، نيسان ،وزارة الثقافة الفلسطينية،2011 ، ص 15 .

(14) –جاك لين روس ، الفكر الاخلاقي المعاصر ، ت عادل العوا ، عويدات للنشر ، ط1،بيروت،2001 ص 77.

(15) – المرجع نفسه ، ص 78 .

(16)- عبدالرزاق بلعقزوز ، تحولات الفكر الفلسفي ، الدار العربية للعلوم ناشرون،ط1،الجزائر،2009 ،ص 88 .

(17)- J. Habermas.- Morale et communication : conscience morale et activité communicationnelle, tr.- Flammarion 1986.p87.

(18)- المرجع نفسه ،ص 09 .

(19) –المرجع نفسه ،ص 60.

(20)- الناصر عبد اللاوي ، التواصل و الحوار في اخلاقيات النقاش في الفكر الفلسفي المعاصر،دار الفارابي ط1 ،2013 صفاقص .ص 108 .

(21)- J. Habermas.- De l'éthique de la discussion, ibid, p140

(22)- J. Habermas.- Droit et démocratie, entre faits et normes. tr. Rainer Rochlitz.et Christian Bouchindhomme.1997.p139.

(23)- J. Habermas.- De l'éthique de la discussion, ibid, p 4546-.

(24)- ibid, p15

(25)- - J. Habermas.- Morale et communication : conscience morale et activité communicationnelle, tr Flammarion 1986.p8889-.

(26)- J. Habermas.- Vérité et justification ,ibid.p23.